قضايا الأدب والأدباء

مهرجان بلا شعر

بقلم غالي شكري

عندما يتربع العقاد على عرش السلطة الادبية والفكرية في مصر ، فان ذلك يعني اهدار كافة القيم الثورية ، وتعطيل أعظم مكتسباتنا عن الامتداد . فالامر لا ينحصر في هذا المهرجان أو ذاك ، وهذه المسابقة او تلك ، وانما هو يتحدد في تلك الهوة العميقة بين القيادة السياسية للثورة ، والقيادة الفكرية للمجتمع . فالوجوه الرسمية للتعبير عن مجتمعنا الثوري المعاصر ، هي بعينها الوجوه التي عبرت عن مجتمعنا المحطم الفاسد . ومهما كانت لدى الانسان قابلية ضخمة للتطور، ومسايرة الزمن ، فان ذلك يصدق عليه وهو يجتاز أولى خطوات تطوره، لا وهو على أعتاب القبر . والواجهات الاساسية للثقافة العربية في مصر اليوم قد بلغت شيخوختها حدا تتعذر معه عملية التطوير ، ولذلك فأصحابها لا يسايرون الزمن وانما يسايرون « الظروف » .

غير ان مسايرة الظروف تقتصر عادة على النفاق السياسي، لانه المحك المباشر بالسلطة ، وغالبا ما تنقلب الاوضاع وتصبح الظروف هي التي تساير اولئك الشيوخ . ونحن ابناء الجيل الجديد لا نضمر سوءا لروادنا وأساتذتنا ، فقد كانوا الينابيع الاولى التي نهلنا منها .. ولكنا نقول بأنهم ليسوا في مستوى المرحلة الثورية الجديدة التي نعيشها. وأنه ينبغي ألا يتحول احترامنا العميق لهم ، الى احترام للقيم التي يحملونها . فمن المتناقضات المرة مثلا ان يسيطر شاعران مثل صالح جودت ومحمود حسن اسماعيل على مقاليد الشعر في الاذاعة والمجلس الاعلى للاداب والفنون ، وهما اللذان أنشدا للملك ما نخجل الان من تسجيله . أقول ذلك ، لا لنقتص من هذين الشاعرين ، فقولي ليس خبرا جديدا ، وانما لنتساءل : كيف يمكن لامثالهما أن يقودا الاجهزة الفكرية في عهد الثورة ؟ الجواب أنه حفاظا على هذه المناصب اللامعة ، يستعدي صالح جودت السلطات ضد الشعراء الجدد بدعوى أنهم « قرامزة » ، ويحول العقاد نماذجهم فيمسابقة الشعر «الى لجنة النثر للاختصاص» وتحرمهم الهيئة المشرفة على مهرجانات الشعر من التعبير الاصيل عن ثورتهم . وأقول « ثورتهم » ، لانها لم تكن قط ثورة صاحب ديوان « الملك » ولا ثورة صاحب « أغنية الفن » ولا ثورة الذي وصف فاروق بانه « فيلسوف » . اننا لا نتشفى ، ولكن العار يضغط على رؤوسنا ضغطا مخيفا . ولن نموت قبل ان نترك بصمات شهادتنا .

* *

لقد أصبحت معاركنا الادبية محددة المعالم من قبل أن تبدأ .. فاذا تناولنا قضية القديم والجديد في الشعر ، أو أزمة النقد الادبي والفني ، أو أزمة الصحافة، أو اللغة ، تتحول المعركة بسرعة من مستواها الفني والفكري الى المستوى السياسي ، فيصبح كل مجدد أو داعية الى التجديد « يساري مخرب » ، وكل محافظ على التقليد يتصدر الواجهات الرسمية للسلطة . وهذه الحال ، لو سارت عليها الحياة الادبية والفنية عندنا ، خمس سنوات اخرى ، فلسوف نشيع الى الجحيم أروع انتصاراتنا الفكرية . ويومئذ سيتحطم المعبد فوق الجميع، لن يبقى جديد ولا قديم .

* *

ان مهزلة المهرجان الرابع للشعر ، وما سبقه وما تلاه من ألوان الدعاية الرخيصة ، لهي مثال قوي لما نذهب اليه من أن أرضنا الفكرية والادبية والفنية مهددة بأن تمسي أرضا خرابا . ولست أود ان اخوض فيما سبق هذا المهرجان من مهرجانات ومهازل ... لانني أريد في هذا المقال ان اعرض للمادة الخام التي صاغت هذا المهرجان من بحوث وشعر حتى نقف على معالم الكارثة التي تنذرنا بالتبدد والضياع .

من اكثر البحوث جدية ، كان البحث الذي ألقته الدكتورة سهير القلماوي « حول التجديد في الشعر المعاصر » . قالت أن الجديد يولد في ظل القديم ، متفاعلا مع تيارات خارجية وافدة . وأن ولادة الشعر الحديث في القرن الماضي كانت نتيجة الاحتكاك بالغرب . وأكدت على أن سلطان القديم في الادب العربي بلغ من القوة أنه « لم يكن قاصرا على قرض أوزان وقواف بل انه كان يتجلى في فرض موضوعات بل هو قد امتد الى فرض صور وتعبيرات وألفاظ مما كان دائما هدف هجوم المجددين » . وفي مكان آخر من البحث تقول : « ان سلطان الشكل القديم في القصيدة العربية طاغ قد تأصل (لاسباب ليس هنا مجال شرحها) في النفس العربية بحيث أصبحت لا تطيق خلخلة ضخمة فيه. وما حدث من قبل من تجديد في تنوع القافية على اشكال لا تخفي وتنوع الوزن على أشكال عديدة لا يمكن ان يصل الى ما نحتاج اليه اليوم في الشعر الحديث » . والدكتورة تعتبر أن من دعاوى المجددين ادخال العامية الى الشعر ، فتستطرد : « أما ادخال العامية فالامثلة عليه اكثر من أن تحصى في شعر شعرائنا المحدثين . ولا شك أن كل اسراف في الحرية يؤدي حتما الى عكس المطلوب منها لان الحرية الحقة معناها قيود جديدة لو تأملنا » . ثم تنتهي الى أن المدرسة الرومانسية هي التي حملت بذور مشكلة الشعر المعاصر . وتحدد مآخذها على هذا الشعر بقولها :

* « ان شعراءنا المحدثين فيما أرى لا يقدرون بعمق خطر الرسالة التي يحملونها. ومن مظاهر عدم التقدير اهمالهم اتقان ادواتهم الاولى. وليس معنى هذا أن يكرروا ما كرره شعراء فترات الركود من صور باهتة وتعبيرات متخفية ، وانما معناه أن يرهفوا حسهم اللغوي وذوقهم التعبيري بحيث يجددون في عمق ولكن بشعر عربي واسلوب عربي . والدارس لبعض شعرنا الجديد يلمس في يسر وسهولة مدى ما يتوفر له الشاعر ، وهو يدخل التجديدات في التعبير ، من خطر الانحراف الى نماذج لا يسيغها ذوق اللغة » .

* « .. والذي لا يمكن أن نجادل فيه هو أن الموسيقى مقوم أساسي في الشعر . والموسيقى معناها تصميم ، معناها بناء هندسي يستعين بالوقوف وبالحركة ، بالنظام والتكرار على خلق جمال هندسي منه التوافق والانسجام . ولا يمكن أن يسمى شعرا تعبير استغنى عن كل صور الموسيقى ، وليكن أسمى ما يكون من أدب ولكنه ليس بشعر . واذن فالوزن والقافية وحدات ضرورية ليكون هناك قصيد » .

* ودفاعا عن القافية تذهب الباحثة الى أنه « لما كانت القافية المكررة وسيلة من وسائل افراد البيت بكمال معناه ، نوع الشعراء في القافية وقصوا قصصهم دون قطع . وكان مطران من رواد هذه الحركة » . « ان القافية عامل تفرد من حيث المعنى ولكنها عامل تجميع من حيث الموسيقى . والشعراء المحدثون يريدون لمعانيهم الغامضة القلقة المشعثة أن تتجمع حول نقطة تعمقها وتركزها ، لذلك ابتكروا الوانا من الوقفات ولا أقول القوافي ولكن منهم من راح يقطع البيت لسبب ولغير ما سبب » .

وليست هنا مجال مناقشة كل ما جاء في بحث الدكتورة سهير ، بالرغم من أنه كان اكثر البحوث جدية وتركيزا وهجوما على الشعر الجديد . وسوف نقتصر على مناقشة ما تأخذه على هذا الشعر من أوجه الضعف فيما ترى . وأبدأ من الكلمات الايجابية التي وردت في قولها : « وهدفنا من هذه الكلمة ان نمعن النظر في هذه الجهود الاخيرة وان ندعو الى تقييمها وأن ننبه الى خطورة تركها تتفاعل تفاعلا عفويا دونما

توجيه مخلص او توجيه دارس » . وكذلك : « ان شاعرا عبقريا واحدا يستعمل الشكل الجديد يمكن ان يفرضه علينا فرضا . ولكن هل هيأنا بالدرس المنصف المخلص لبزوغ نجم هذا الشاعر ؟ »

أبدأ من هذه السطور الايجابية ، فأؤكد للاستاذة الباحثة ان الشعر الجديد لم يقدم شاعرا واحدا ممتازا ، وانما قدم في كل بلد عربي اكثر من شاعر. ولكن غياب نماذجهم عن الدراسات الجادة الموضوعية من جانب الاجيال السابقة عليهم ، هو الذي أبرز ما يشبه الاحساس بالذنب لدى الباحثة فيما يتعلق بتهيئة السماء العربية لظهور النجوم الجديدة . ويعنيني في الكثير ان اسرد للدكتورة سهير ما سمعته من احد نقادنا الكبار ـ وهو أستاذ بالجامعة في نفس الوقت ـ فقد انتهى من تأليف كتاب حول حركات التجديد في الشعر العربي دون أن يعقد فصلا خاصا بالشعر الجديد ، بالرغم من ايمانه به كما يظهر من مقدمة ديوان له ، ومن دراساته العديدة في الصحف والمجلات . قال لي بالحرف أن ما يثار حول هذا الشعر من تفسيرات سياسية تتهم أشياعه وأنصاره بالقرمزة يحول بينه وبين ان يفرد له فصلا نقديا في كتابه عن التجديد. فاذا عبرنا خلو الدراسات الجامعية من تقييم هذا الشعر ، فاننا سوف نلتقي بالتجاهل التام من جانب الاجهزة الرسمية الاخرى في المجلس الاعلى للاداب والفنون ووزارة الثقافة والارشاد القومي . ولقد أدى الارهاب من جانب مؤسسات العقاد وصالح جودت والتجاهل من جانب الاخرين ، الى أن ينأى بعض الباحثين المخلصين عن الحركات الجديدة في الشعر ، فاتخذت فئات منهم موقفا سلبيا هو الحياد ، واتخذت فئات أخرى موقفا معاديا على اساس التقاط عفوي للنماذج، وفهم مبتسر للحركة ، وتفسيرات سطحية لظهورها .

والدكتورة سهير القلماوي من الفريق الثاني الذي يعتمد على الصدفة والعفوية . ومن هنا يلتقي بنماذج شائهة تفقده الثقة في دلالة الحركة الجديدة . كما أنه يضع يديه على جزئيات الحركة دون الوصول الى جوهرها وشمولها . والا فبماذا نفسر ما تقوله الباحثة عن الحس اللغوي عند الشعراء الجدد ، من انه يكاد يكون معدوما لديهم ، ومن هنا تكون الفوضى في التكوين الجمالي للقصيدة الجديدة . فلو أنها درست النماذج الهامة في شعر بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وخليل حاوي وصلاح عبد الصبور وغيرهم من أبناء الطليعة في هذا الجيل ، لادركت أن الجديد في شعرهم ليس هو « الشكل » العام للقصيدة ، ولا هو « المضمون » .. وانما الجديد هو « الرؤيا » الفنية التي يبصر بها الشاعر عالمه . واللفظة هنا تؤدي وظيفة جديدة للغاية . فهي ليست أداة للتكامل الموسيقي ، أو أحد خطوط الصورة .. انها تحمل شحنة ذهنية ونفسية تسهم في تكوين « الرؤيا » الشاملة للشاعر . ولربما لا تجيء هذه الرؤيا كاملة في قصيدة واحدة أو عدة قصائد ، بل ربما لا نحصل عليها في ديوان كامل .. وهكذا قد تظل ناقصة أمدا طويلا ، ولكن هذا لا ينفي طبيعة القصيدة الجديدة من كونها تكشف لنا عن « الرؤيا » التي يراها الفنان ، مهما كانت القصيدة قاصرة عن كشف جميع الجوانب الخاصة بهذه الرؤيا . بل ان هذه الرؤيا بعينها تزداد عمقا وتتعدد أبعادها ، كلما عمقت تجربة الشاعر وتعددت مناسيبها . وهذا يتطلب من الناقد ملاحقة الشاعر الجديد في رؤياه ملاحقة لاهثة لا تخضع للميزان التقليدي في النقد . لذلك تختط اللغة في الشعر الجديد مجرى جديدا تماما لا يخضع لتنسيق الانظمة القديمة في اختيار اللفظة وتكوين البيت وهيكل القصيدة . وما تراه سهير من « فوضى » لغوية في الشعر الجديد ، هو مجرد « شذوذ » عن الحس اللغوي التقليدي . وما دامت هي نفسها تقول « من المسلم به أن الخليل لم يدرس الاوزان نظريا أو عقليا وانما هو أحصى ودرس واستخرج القاعدة » فان المطلوب اذن هو احصاء الشعر الجديد ودراسته واستخراج قواعده . والمطالعة العابرة للكتابات النقدية حول الشعر الحر تومىء بهذه القواعد وتشير اليها وتخطط لها وتؤكد أنها أصعب منالا بكثير من قواعد الشعر التقليدي .

وعندما تكون اللغة ذات دلالة خاصة في شعرنا الجديد ، فان موسيقاه تتغير تبعا لذلك من المعنى المبتذل للموسيقى الى معنى يجسد أدق خلجاتنا وهمسات ذواتنا لا من خلال ضجيج القوافي التي تلهث وراء حواسنا الخارجية . وعندما تتحدث الدكتورة عن القافية والبيت في الشعر العربي ، تلغي نهائيا أية قابلية للتطور في هذا الشعر .. وهي بذلك تلتقي مع الاستاذ العقاد في قوله أن الشعر العربي دون أشعار العالم يتصف بقدرة على التجدد في حدود القافية والاوزان القديمة .

غير أن العقاد يضيف بعد ذلك في بحثه أمام المهرجان :

* « .. لا يوجد في آداب العالم فن يقبل التجديد غير فن الشعر في اللغة العربية ، او لا يوجد فن للشعر مستقل بقوامه لا يتوقف على فنون الغناء أو الرقص او التمثيل غير فن القصيدة العربية » .

* « .. فن الشعر العربي يتجدد وهو فن الشعر بقوامه من الوزن الاصيل في تركيب اللغة العربية ، فليس للموشحة الاندلسية فن غير فن العروض حتى في القصيدة الجاهلية ، بل ليس للزجل العامي فن غير فن الموشحة والقصيدة في أساس التركيب » .

* « .. وسبب هذا الفارق بين الشعر العربي والاشعار الغربية أن هذه الاشعار الغربية لم تستقل قط عن فنون الغناء والرقص والتمثيل وما يشبه التمثيل ، سواء في انشاء الجماعة أو انشاء الافراد » .

والعقاد بذلك يتنازل عن رأيه القديم في ان الشعر الاوروبي لم يصب بسوء (والسوء في عرفه هو التجديد) ، ولكنه يفسر تطور وتجديد الشعر الاوروبي على أساس ارتباطه بالفنون الاخرى كالرقص والتمثيل والغناء (الاوبرا مثلا) .. الخ. ولست أعتقد أن ناقدا أو مؤرخا جادا يعتمد على هذا العنصر اليتيم لتفسير هذه الحركة الكبيرة . بالاضافة الى ذلك يبرز سؤال جديد : كيف تؤثر تلك الفنون في الشعر وتتطور به ؟ هل هي تمتلك مؤثراتها في جوهرها المحرر ، أم أنها محاطة بمجموعة من الظروف تعمل على تطويرها « وتطوير الشعر معها » ؟ . واذا كانت هناك ألوان من الشعر الاوروبي والامريكي لا تتصل اطلاقا بالفنون الاخرى ، فكيف لنا أن نفسر تطورها المستقل ؟ واذا كانت تلك الفنون تمتلك قدرة ذاتية على التطور ، تعتبر بمثابة المحرك الذي يطور الشعر، فهل يعني ذلك أن الشعر كواحد من هذه الفنون قد خلا من هذه الامكانية ، هذه القدرة الخاصة على التطور ؟

يجيب العقاد بأن الشعر العربي وحده ، هو الذي انفرد بالقدرة الذاتية على التطور مستقلا عن أية فنون أخرى ، فهل هذا صحيح ؟ ألم يمتزج الشعر العربي في مختلف مراحل تطوره بألوان من الرقص والغناء ؟

ان الاجابة على هذه المجموعة من الاسئلة لا يمكن صياغتها في سطر أو عدة أسطر ، وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا المجال الضيق أن الرقص والغناء وغيرها من الفنون لا تمثل الا عنصرا واحدا من عناصر المركب الحضاري الدافع للشعر الى التطور . واذا كانت الحياة العربية قد خلت من بعض عناصر هذا المركب ، فان هذا لا ينفي وجوده أصلا، لا ينفي النظم الاجتماعية والتيارات الفكرية والحالات النفسية ، الصانعة للتكوين الحضاري ككل .

وما يثيره العقاد من اعتراضات موضوعية حول الشعر الجديد ، نقابله باحترام بالغ العمق ، غير أنه سرعان ما يهجر الموضوعية ويتحول الى شيء لا اريد ان أسميه ، كأن يصم الشعراء الجدد باتهامات تؤدي الى السجن ، كما جاء في بحثه أمام المهرجان الذي قال فيه «ان فن الشعر ـ الغربي ـ يتجدد وهو على قوامه الذي ينمو ويتنوع ولا يبطل أو ينقض ، وعلى هذه الوتيرة يتسع له مجال التجديد الى غير نهاية في المستقبل ، ولا حاجة باحد الى ابطاله او نقضه لغرض من اغراض الفنون ، الا ان يكون هناك غرض سيء لا يخفى على طلابه »

وقد سبق للعقاد أن شرح هذه الاغراض السيئة ، ولونها باللون الاحمر الزاهي . وظل مندوبه « منشد الملك » صالح جودت يؤكد على هذا اللون في كل مناسبة ، وبغير مناسبة .

كم كانت بحوث المهرجان بحاجة شديدة الى ما صدر به الدكتور

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ

قضايا الادب والادباء

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٥ ـ

زكي نجيب محمود بحثه قائلا «.. ونخلص من هذا الى مبدأين هامين في قبول الشعر الجديد : أولهما أن يكون قد جاء ليصوغ حالات لم تخرج من قبل الى عالم الصياغة اللفظة ، وثانيهما ألا تكون هنالك وسيلة اخرى غير الشعر لقيد تلك الحالات الجديدة » .

غير أن انعدام الديموقراطية في الاشراف على المهرجان ،والارهاب الفكري الذي سبقه وصاحبه وتلاه ، لم يتح للشعراء الجدد ، او لنقاد آخرين ، أن يعرضوا وجهة نظرهم . بل ان واحدا من المتحدثين لم تلفت نظره أرقام التوزيع للدواوين الجديدة التي بلغت بواحد منهـا خمسة عشر الفا من النسخ ! لم يتساءل أحد : لماذا تقبل دور النشرعلى اصدار هذه الدواوين ، ولماذا يقبل القراء على شرائها ... بينما تخسر موجة الشعر التقليدي وتتضاءل على مستوى النشر والقراءة .

ان مؤسسة العقاد، ولا اقول لجنة الشعر، تدافع بضراوة واستماتة عنبقائها بين لجان المجلس الاعلى للآداب والفنون... فالانظار الان تتجه الى القرار الجديد الذي لم يصدر بعـد بتشكيل مجلس الادارة بعيون ملؤها الامل .

الامل في ان يصبح المجلس وجها شرعيا للثورة . فيدخل الميثاق الوطني الى مجال التطبيق في دوائر الادب والفن .. حتى لا تتخلف الثورة الفكرية عن ركاب الثورة السياسية ، بل ينبغي ان تسبقها لتضيء امامها الطريق .

والقصائد التي تليت على الحاضرين في مهرجان الشعر ، لا يمكن اعتبارها بحال وجها اصيلا لثورتنا ، ولا تعبيرا مضيئا لخطواتها .

* *

تنشد لورا الاسيوطي للثورة ، فتقول :

طرد الضلال من البلاد ولم يدع فيهـا انتهازيـا ولا رجعيـا
واعـاد للفـلاح ارض جدوده فغدا بمـا قد نالـه مرضيـا
رد القناة لاهلهـا من غاصب واعـاد محتـل القنـاة شقيـا
واقـام للتصنيع شعبـا ناهضـا سبق الزمن تقدمـا ومضيـا

ويخـاطب الاستاذ محمد طـاهر الجبلاوي العضو بلجنة الشعر ، فصول ، السنة قائلا :

هوذا ربيـع الصيف بحر زاخر عذبت نسـائمـه وموج مزهـر
انى ذهبت فثـم وجـه مشرق يغري بطلعتـه وحسن يأسر

ثم يقول للشتاء :

شمس الشتـاء مرادي ومتعتي في الشتـاء
المـاء والزهـر عنـدي فـي حسنهـا والرواء
اذا جلسـت اليـهـا نسـيت بـرد المسـاء
وخلـت نفسي بدنيـا فسيحـة الارجـاء
دنيـا رؤى وخيـال وذكريـات ظمـاء
تطيف بـي حـائمـات مـع السني الوضـاء

وتغني روحية القليني لبنت الجزائر :

بنت الجزائر قاتلت مثـل الفتى وتـذرعـت بالصبر والايمـان
وجميلة مثـل البطولـة والفدى فـاقت بطولتهـا قوى الشجعـان

ويردد الاستاذ العوضي الوكيل :

حمـدت اللـه ان عشـت الـى ان سـادت العـرب
واجـلوا عـن مرابعهـا الاذى وانجـابـت الـكرب
ونـال الشعب خـير الارض لـم يستجد مـن لهـب
وعـم الخـير اهليهـا وفـاض بهـا ولا عجـب
وكـل عـامـل يسمو بـه الاخـلاص والـدأب

وتهدي جليلة رضا الى امة العرب قولها :

شيئـان دونهمـا الوجود هبـاء وحياتنـا هي والفنـاء سواء
حرية وكرامة .. وهمـا هنـا في مصرنـا .. ميراثنـا الوضاء.

اما صالح جودت فيخاطب الاسكندرية :

يـا كعبة العلم يـا تاريخ نهضته ومن ببابـك أعـلام الحجى نشـأوا
ثبنـا اليك ، وصلينـا لجامعـة العـلم فيهـا سـائغ مريء
ما أخلق العلم بالتاميم في زمن عـدل يؤمم فيـه المـاء والكـلأ

* *

لست أريد ان استرسل في ايراد هذه النماذج الصبيانية ،ولكن أسـال الدكتور زكي نجيب محمود : هـل عثرت في هـذا الكـلام علـى « حالات نفسية لم تسبق صياغتها اللفظية» ؟ وهل ترى ان هذا الكلام « لا يمكن صياغته نثرا » ؟

يخيل الي ان هذه النماذج تثبت شيئـا واحدا ، وهو ان الشاعر يتوقف عن ان يكون شاعرا حين تصبح كل مهمته هي رصف الكلمات على هذا النحو الذي شهدناه في جنازة الاسكندرية للشعر كما قيل .

وكنت اود لو ان العقاد او سهير القلماوي او زكي نجيب محمود ، كلف احدهم نفسه بدراسة مواد المهرجان ، قبل ان يقحموا انفسهم في قضايا الجديد والقديم . فما قيل ليس جديدا ولا قديما . لقد خلا المهرجان تماما من الشعر .

غالي شكري

دار الثقافة ببيروت
تقدم الكتاب السادس من

المكتبة الاندلسية

ديوان الأعمى التطيلي

أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة

(ـ ٥٢٥)

حققه

الدكتور إحسان عباس

الجامعة الأميركية ـ بيروت

يطلب هذا الكتاب من الناشر

دار الثقافة

ص.ب ٥٤٣ بيروت

ومن مكتباتها : مكتبة دار الثقافة
بساحة رياض الصلح

ومكتبة الجامعة ـ شارع بلس
(عمارة سينما اديسون)